مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 1 السنة: 2021
ص: 1091 - 1111 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التوحيدي قارئا للجاحظ

Tawhidi Reading for Al-Jahiz

* ط.د. هاشم رابح[1]، د/أ: دردار بشير[2]
Hachem Rabah[1], Derdar Bachir 2
مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة
جامعة أحمد ابن يحي الونشريسي – تيسمسيلت /الجزائر
University Ahmed Ibn Yahia EL-Wancharissi- Tissemsilt /Algeria
[1]hachem.rabah@cuniv-tissemsilt.dz
[2]bacderdar@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/11/04	تاريخ القبول:2021/01/05	تاريخ النشر:2021/03/30

ملخص البحث

بات من المتعارف عليه قديما وحديثا أن التوحيدي مثّل الامتداد الجاحظي في الكتابة النثرية، الأمر الذي حدا بالباحثين إلى عقد المقارنات الطويلة بين الكاتبين على المستوى الأسلوبي، وعلى المستوى الفكري، ولقبوا التوحيدي بالجاحظ الثاني. في هذا البحث سنحاول جمع شتات هذه الأقوال لنرى إلى أي مدى استطاع التوحيدي أن يتمثل الإرث الجاحظي في كتاباته النثرية؛ مبينين مقدار الأثر الذي تركه فيه، ومستويات قراءته له، متناولين بذلك ما ضمنه كتبه من أقوال حول الجاحظ وبلاغته، ومقارنتها بأقوال الدارسين القدماء، مستندين في ذلك على أهم دراسات المعاصرين الذين تناولوا الجاحظ والتوحيدي.

الكلمات المفتاح: التوحيدي، الجاحظ، الكتابة النثرية، المستوى الأسلوبي، المستوى الفكري.

Abstract:

It has become known, in the past and in the present, that Al-Tawhidi represented the extension of al-Jahzi in prose writing, which promoted researchers to make long comparisons between the two writers at the methodological level and even on the intellectual level, and they called al-Tawhidi by al-Jahiz al-Thani. In this research we will try to collect these researches to see to what extent Al-Tawhidi was able to represent Al-Jahzi in his prose writings, indicating the amount of impact he left on him and on his writings, dealing with that in his books about Al-Jahiz and his rhetoric, and comparing them with the writings of ancient scholars, based on the most

* هاشم رابح: hachem.rabah@cuniv-tissemsilt.dz

important studies of contemporaries who dealt with Al-Jahiz and Al-Tawhidi.

Keywords: Al-Tawhidi, Al-Jahiz, prose writing, the methodological level, the intellectual level.

المقدمة:

تطور النثر الفني وازدهر في أواخر القرن الرابع هجري، ويعزو أغلب الدارسين الفضل في ذلك إلى كوكبة من الكتاب والمؤلفين في مقدمتهم الجاحظ، الذي لعب دورا فعالا في إرساء أسسه ورفع صروحه؛ خصوصا أن النثر الفني في أواخر القرن الثاني للهجرة كان لايزال غضا طريا، لما تتحدد معالمه. ومع توفر الكتابة وظهور طبقة من المؤلفين والوراقين تطور النثر، وأصبحت له قيمته الخاصة التي ما فتئت تنازع الشعر مكانته ونفوذه في كثير من الأحيان. وقد استطاع الجاحظ بقدرته البيانية أن يلفت انتباه الخلفاء والملوك إليه، خصوصا وأنهم لم يألفوا هذا النوع الجديد من الكتابة النثرية، وشدّهم في ذلك أسلوبه المازح، وطريقة كتابته المستفيضة، وسعة اطلاعه، وقوة الحجة لديه، وتحكمه في اللغة التي أصبحت ملك يمينه يسيرها كيف يشاء، فاستعانوا به في قضاء حوائجهم والرد على خصومهم، وأجزلوا له العطاء، فشجعه هذا على كتابة المصنفات التي لازالت إلى اليوم تعقد لها الندوات لفك مغاليقها، والتي أبى الزمن أن يطوي صفحاتها.

ولم يقتصر تأثير الجاحظ على طبقة السلطة، بل تعداه إلى طبقة الكتاب الذين أحبوا أسلوبه فسلكوا سبيله ونحوا نحوه، وجعلوا كنيته وسام شرف يستحقه كل من نبغ منهم «فهذا أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، وناهيك به من فيلسوف حكيم كان ينعت بجاحظ خرسان، وهذا أبو الفضل ابن العميد وشَرْعَكَ من وزير عليم كان يرتاح إلى من يصفه بالجاحظ الثاني، وهذا أبو حيان التوحيدي وهمَّكَ من كاتب بليغ، كان ينازع ابن العميد صفة الجاحظ الثاني، وهذا محمود بن عزيز وحسبك من عالم جليل، كان ينعت بالجاحظ الثاني، وهذا أبو محمد الحسن بن خلاد قال عنه ابن النديم: إنه كان حسن التأليف، مليح التصنيف، يسلك طريقة الجاحظ»[1].

والأمثلة كثيرة ومتعددة فيمن قلد الجاحظ وتشبّه به؛ غير أن الذي نريد أن نقف عنده، واحد ممن ذكرنا سابقا، تكاد تجمع كل الدراسات على أنه كان فعلا أكثرهم تشبّها بالجاحظ، واتّباعا لأسلوبه في الكتابة، رغم الزمن البعيد الذي يفصل بينهما.

لم يلتق التوحيدي الجاحظ مطلقا، فالزمن الذي يفصل بينهما أكثر من قرن ونصف، لكنه عرفه من خلال كتبه التي قرأها واستنسخها، وسهر عليها منذ صغره، الأمر الذي أهله لأن يكون حقا الوريث الأكبر له في الكتابة النثرية، بشهادة أغلب الدارسين. يقول إحسان عباس: «وصلتْه حرفة الوراقة بأمهات الكتب، ينسخها ويدرسها ويلخصها ويقتبس منها، وخاصة كتب الجاحظ، التي عرفها في دور مبكر، وأخذ نفسه بها، وتعلّم منها الحقائق والطريقة الكتابية»[2].

فهل يستفاد مما قيل حول اتباع التوحيدي للجاحظ عند القدماء والمعاصرين، أنه مجرد متبع له، يستنسخه، ويعتاش على منجزه، أم أن اتباعه له كان اتباع تلمذة واستلهام، قاده الى استكمال ما ابتدأه أستاذه، وإكسابه مزيدا من الأبعاد الجمالية والمعرفية؟

وهل كانت قراءة التوحيدي للجاحظ قراءة محايدة، أم متعاطفة؟

وهل مارس التوحيدي قراءة من مستوى واحد لتراث الجاحظ، أم أن هذه القراءة تجلت في مستويات متعددة؟

في هذا المقال سنعالج الإشكالية المطروحة فيما تقدم ذكره بتناول الجاحظ في قراءات الأقدمين، كعنصر أول نبين فيه اختلاف قراءة التوحيدي للجاحظ عن باقي القراءات، ثم نتعرض إلى التوحيدي من الاحتذاء بالجاحظ إلى مواصلة منجزه الكتابي، كعنصر ثان نعالج فيه قضية الاتباع والمواصلة والتي تمثلت في المحافظة على الخط العام للمنجز الموروث، مع القيام بإكمال ما ابتدأه الجاحظ، وترسيخ معالمه وتوجهاته، حتى إذا ما فرغنا من ذلك، عكفنا على آخر عنصر من المقال، وهو مستويات قراءة التوحيدي للجاحظ، وفيه ركزنا على أهم النقاط التي استلهمها التوحيدي من الجاحظ في كتابته الفنية، ثم ختمنا المقال بأهم النتائج المتوصل إليها.

أولا– الجاحظ في قراءات الأقدمين:

كل من عرف كتب الجاحظ اكتشف قيمتها، وعدها ثروة أدبية ولغوية وحضارية لا يستغنى عنها، «فهو من أحذق أئمة الأدب وأعرفهم بما يقول وأبصرهم بمدارك العقول»[3]؛ وكتبه هاته لقيت إقبالا كبيرا عليها قديما وحديثا، فقد سماها ابن دريد «بمنتزهات القلوب»[4]التي لا غني عنها في مجالس العلماء ومحافل الأدباء، يتباهون بحفظها ونسخها وفهمها، وفي هذا يقول القاضي الفاضل: «أمّا الجاحظ فما منا مَعَاشِر الكُتاب إلاّ مَن دخَل مِن كُتُبِه الحَارَة، وشَنّ علَيَها الغَارَة، وخَرَجَ على كَتِفِه مِنها كَاره»[5].

ويعد **ابن قتيبة (ت 276 هـ)** الذي عاصر الجاحظ، أول من وصف نثره وحكم عليه في كتابه (تأويل مختلف الحديث)، حيث قال: «هو آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه، ومرة يؤخره، ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتبعه قال الجماز»[6].

تعد قراءة ابن قتيبة لنثر الجاحظ واحدة من القراءات التي مهدت الطريق أمام الباحثين في الاعتماد عليها والسير على منوالها، حيث قدم لنا صورة عن أسلوب الجاحظ وقدرته البلاغية التي استطاع بها أن يطوع اللغة فيجعلها ملك يمينه يفعل بها ما يشاء، الأمر الذي أهّله إلى أن يعمل الشيء ونقيضه في نفس الوقت، غير أن التعصب المذهبي جعل ابن قتيبة الذي ينتمي إلى مذهب السنة لا يستطيع «النظر إلى أسلوب الخطاب وآلياته الحجاجية بعيدا عن دلالاته أو محتواه، فالجاحظ يمتلك القدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه، أن يحتج للبخيل ويظهره في صورة تدبير وإصلاح، أو يحتج ضده فيخرجه في صورة شائهة ساخرة تنزل بالبخلاء إلى أسفل الدركات»[7].

احتكم ابن قتيبة في تشخيصه لنثر الجاحظ، إلى المعيار الديني الذي جعله يرفض كل أشكال الهزل والمجون ومواقف السخرية التي اشتمل عليها نثر الجاحظ، «والنتيجة الطبيعية لهذا التصور هي النظر إلى الموضوعات في نثر الجاحظ (الغش والسرقة والكدية ...) باعتبارها ظواهر سلوكية موسومة بالانحراف، وليست صورا أدبية، أو خطابات تخييليه ينبغي تقييمها بقوانين الأدب والتخييل»[8].

ويعلق الدكتور **حمادي صمود** على قراءة ابن قتيبة للجاحظ بقوله: «ولم يستطع ابن قتيبة خصيم الجاحظ من وجهة عقائدية، ورغم فورات الغضب التي تنتابه، وهو يستعرض بعض آرائه، أن يفلت من تسلط كثير من أرائه اللغوية والبيانية عليه، وإن كان لا يبلغ في تفسيرها وتعليلها عمق الجاحظ ودقة نظره، ورغم توسعه في استعراض التفاصيل بكيفية لم نلحظها عند سلفه»[9].

والحقيقة أن ابن قتيبة استند في قراءته هاته إلى الوضع السائد آنذاك، الذي يمنع الكتابة في الموضوعات المنافية للأخلاق والشريعة واستدل ابن قتيبة في عرض موقفه هذا بالاحتجاج بقول الشاعر:

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه[10]

واستمرت هذه النظرة التي وسم بها ابن قتيبة نثر الجاحظ إلى العصور اللاحقة، «فقد وصفت كتبه التي تناولت موضوعات هامشية، أو ظواهر منحرفة، أو متنافية مع سنن الدين، بأنها كتب مفسدة للأخلاق لا فائدة منها وصاحبها مذموم الشريعة والمروءة»[11].

وفي هذا يقول **عبد القاهر البغدادي (ت 429هـ)**: «وأما كتبه المزخرفة فأصناف: منها كتب في "حيل اللصوص" وقد علّم بها الفَسقة وجوه السرقة، ومنها كتابه في غش الصناعات وقد أفسد به على التجار سلعهم، ومنها كتابه في "النواميس" وهو ذريعة للمحتالين يجتلبون بها ودائع الناس وأموالهم، ومنها كتابه "الفتيا" وهو مشحون بطعن أستاذه النظام على أعلام الصحابة، ومنها كتبه في "...الكلاب، واللاطة" وفي "حيل المكذبين". ومنها كتاب "طبائع الحيوان"... شحنه بمناظرة بين الكلب والديك، والاشتغال بمثل هذه المناظرة يضيع الوقت بالغثِّ، ومن افتخر بالجاحظ فقد سلمناه إليه»[12].والظاهر أن البغدادي من خلال هذا القول غلبت عليه العصبية المذهبية فلم يستطع أن يرى في نصوص الجاحظ غير تلك الصورة التي تدعو إلى الانحلال الخلقي وفساد الطبع وبالتالي فقراءتها مضيعة للوقت، ولو جارينا البغدادي في المنطق الذي حكم به على كتب الجاحظ، وواجهناه بحجاج مضاد، لكان الأولى أن تكون هذه الكتب فضحا للمفسدين والمنحرفين وتعريفا للضحايا بأساليبهم.

ومن القراء أيضا الذين تبنوا موقف ابن قتيبة، وقرؤوا نثر الجاحظ قراءة أخلاقية دينية **الإسفراييني (ت 471هـ)**، حيث قال: «ومن كتبه كتاب (حيل اللصوص) يعلم اللصوص فيها الحيل التي يتوصلون بها إلى الفساد بمدحهم بالشطارة، ويزعم أنها من مروءتهم ويمدحهم باختيار الغلمان على النسوان، وبأنهم يلعبون النرد والشطرنج، ويحثهم على القمار، ويزعم أنه من المروءة ومن الآداب المرضية، ومن عدّ الدعارة والشطارة من المروءة وزينها، وحثّ عليها فقد خالف الشريعة والمروءة، لأن المسلمين أطبقوا على أن من كانت هذه طريقته كان مذموما في الشريعة والمروءة»[13].

لقد تحامل الإسفراييني «على الجاحظ وعلى مؤلفاته، التي رأى فيها أنه لم يترك فيها موضوعا إلا طرقه وحلله من جميع جوانبه كيفما كان هذا الموضوع وكيفما كانت أغراضه وأهدافه فهو يكتب عن الطبقات المهمشة في المجتمع ويكتب في القضايا التي تبدو تافهة كالغش والدعارة واللواط والسرقة والكدية، وهكذا نستنتج أن حكم الإسفراييني على نثر الجاحظ كان حكما دينيا وأخلاقيا»[14].

إن ما قدمه ابن قتيبة وعبد القاهر البغدادي والإسفراييني من حجج للانتقاص من قيمة نثر الجاحظ، ما هو في الحقيقة إلاّ تعصب مذهبي حكم على موضوعات الجاحظ بالفشل من منظور ديني بحت، ولو تأملنا أقوالهما من ناحية أخرى لوجدنا أن كل واحد منهم يعترف ببلاغة الجاحظ وقدرته البيانية التي لامجال للشك فيها، حيث يصرح ابن قتيبة في بداية قوله بقوة نظم الجاحظ وقدرته العجيبة في التحكم اللغة والتلاعب بها كيف يشاء، أما عبد القاهر البغدادي والإسفراييني فيذكران كتب الجاحظ واشتغال الناس بقراءتها، ولا ينتقصانها أدبيا، وكأنهما يعترفان بقدرة الجاحظ البلاغية التي استطاع بها استمالة الكثير من الناس، غير أن الذي حدث مع ابن قتيبة وعبد القاهر البغدادي والإسفراييني، أنهم رأوا في الأدب خطابا دينيا يقوم على إصلاح سلوك الفرد والمجتمع وتقويم مبادئهم، وبالتالي رفضوا كل الموضوعات والأشكال التي استحدثها الجاحظ، والتي من شأنها أن تفسد أخلاق وطبائع المجتمع المسلم.

والظاهر أن مثل هذه القراءات تحتاج إلى بحث من نوع آخر، حتى يتبين الوجه الصحيح لها، والذي من أجله تم الاستناد على مثل هذه القراءة، فأغلب القراءات الدينية الأخلاقية تحتاج منا لفهمها إلى ربطها بسياسة الحكم، كون الأدب في هذه الحقبة مرهونا برضا السلطة عنه، واعتباره وسيلة من وسائل الحكم، تستند إليه حتى تضمن السير الحسن لشؤونها، متخذة من المذهبية والطائفية سلاحا تشهره في وجه كل من أراد أن يخرج عن طوعها، وإلاّ بما نفسر ازدهار كتب الجاحظ في عصر المأمون، وما ناله من مكانة وحظوة كبيرة، في حين أنها تعرضت إلى الكثير من الانتقاص في عصر المتوكل وما تلاه، لا لشيء إلاّ لأن نجم الاعتزال أفل، وظهر مكانه مذهب السنة الذي مثله ابن قتيبة، كما رأينا سابقا، ومن سار على نهجهم ومذهبهم.

وفي خضم هذا نتساءل: هل هناك من قرأ نثر الجاحظ بعيدا عن الصراعات السياسية والمذهبية في ذلك الوقت؟

والحق أن كثيرا من المتلقين القدماء أشاروا إلى براعة الجاحظ وقدرته البيانية، ومن بينهم **المسعودي**، وهو يعد من خصوم الجاحظ، حيث يقول: «كُتُب الجاحظ – مع انحرافه المشهور– تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكَساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملَلَ القارئ، وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزلٍ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة. وله كتب حسان منه البيان والتبيين وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر

عليه لاكتفى به، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب»[15].

بهذا الوصف قدم لنا المسعودي نثر الجاحظ، وصوره بتلك الصورة الفنية التي تختلف في مضمونها عن الرؤية التي تبناها ابن قتيبة والبغدادي وغيرهما، واستطاع إلى حد بعيد أن يحول محور القراءة في نصوص الجاحظ، من قراءة مذهبية دينية إلى قراءة أدبية جمالية، ترى في سمة الجمع بين الجد والهزل بعدا جماليا وبلاغيا، تمثل في دفع الملل عن القارئ وسآمته.

ولعل الذي مثل هذا الاتجاه وأنصف الجاحظ وأعطاه المكانة الأدبية التي يستحقها؛ هو أبو حيان التوحيدي، فرغم العداء الذي كان يحمله التوحيدي نحو المتكلمين والمعتزلة، إذ تجده «يشن عليهم حربا شعواء ولم ينج من هجماته على المتكلمين إلا زعماؤهم الأوائل كواصل ابن عطاء وعمرو ابن عبيد ربما لرسوخ أقدامهم وتدينهم ونزاهتهم»[16].

أما المتأخرون منهم فقد قال فيهم: «قل التأله فيهم، ورحلت هيبة الله عن قلوبهم، وكثر التأويل في كل أمورهم عليهم، وطمع الشيطان في جميع أحوالهم...»[17].

إلاّ أن هذا كله لم يمنع التوحيدي أن ينظر في نصوص الجاحظ تلك النظرة الجمالية الأدبية التي تقوم على وصف نثر الجاحظ وفق «معيار بلاغي مختلف عن المعيار الذي سنه ابن قتيبة، فكلاهما قرأ الجاحظ واستفاد منه، ولكنهما افترقا في طبيعة التجاوب معه والحكم عليه، فبينما احتكم ابن قتيبة إلى معيار ديني وخلقي رافضا تفاعل نثر الجاحظ مع متغيرات الحياة، احتكم التوحيدي على الرغم من موقفه الرافض للمعتزلة إلى معيار جمالي خول له السمو بهذا النثر والتواصل مع سماته في نثره»[18].

عرف التوحيدي كتب الجاحظ فأولاها اهتمامه، وجعل لها الحظ الأوفر عنده، مما شكل لديه القدرة على استكناه طريقة نظم الجاحظ، وفهم أسلوبه على النحو الذي أتاح له السير على دربه في الكتابة، وجعله ينتزع لقب وريث الجاحظ دون منافس بإجماع الباحثين، واللافت للانتباه أن التوحيدي فعل هذا في الوقت الذي عرف فيه الكتاب والباحثون إعراضا عن هذا النوع من الكتابة، متجهين إلى فن جديد يتسم بالبديع والصنعة اللفظية، بل إنهم يعدون نثر الجاحظ من السمت القديم الذي طوى الزمن صفحاته. والغريب أن تجد التوحيدي فوق كل هذا يعتد ببلاغة الجاحظ وينافح عنها إذ يقول: «أنا ألهج -أيدك الله- بكلام أبي عثمان، ولي فيه شركاء من أفاضل الناس، فلا تنكر روايتي لكلامه فإن لي فيه شفاء وبه تأدبا ومعرفة»[19].

والأقوال كثيرة ومتعددة، تلك التي تبين مقدار الأثر الذي تركه الجاحظ في نفس التوحيدي، وهي مبثوثة في تضاعيف مؤلفاته، يكفيك الاطلاع على أي منها لتكتشف ذلك، سواء كان هذا من ناحية الأسلوب وطريقة الكتابة، أو من خلال الاستشهاد بأقواله التي ضمّنها كتبه هنا وهناك، أو من خلال طريقة عرضه للأفكار وترتيبها داخل كتبه، والتوحيدي لا يخفي هذا الاتباع ويتستر منه، كما فعل قبله ابن قتيبة وغيره من الكتاب، بل يصرح به ويفتخر به، ونلمس ذلك جليا من خلال الكتاب الذي خصصه له، وسماه "تقريظ عمرو بن بحر"، وفيه يبين علو كعب الجاحظ وقدرته البلاغية في الكتابة النثرية، بقراءة محايدة بعيدة عن التعصب المذهبي، أو أي اعتبارات أخرى .

وبهذا يكشف لنا التوحيدي عن معيار جديد اعتمده في قراءته لنصوص الجاحظ، لا يعتمد على تلك النظرة الأخلاقية الدينية التي رأت في موضوعات الجاحظ خطابات تعلم الناس الفسق والرذيلة، وإنما على رؤية جمالية فنية تتيح لها النظر في النصوص على أنها خطاب أدبي له مميزاته الفنية البعيدة عن الخطاب الديني، ووفق الغرض الذي من أجله ألفت هذه النصوص، والاختصاص الذي تنتمي إليه (الأدب لا الدين)، وبهذا استطاع التوحيدي أن يفصل بين ما هو نص ديني، وبين ما هو نص أدبي، ويتحرر من قيود المذهبية، ويشيد ببلاغة الجاحظ التي وصفها ببعدها العملي والنفسي والفكري.

ومن هذا المنطلق ألف التوحيدي كتابه (تقريظ الجاحظ)* ، الذي رأى فيه دفاعا عن أسلوبه الذي انتهجه في كتاباته النثرية، والراجح أن الذي جعله يقدم على تأليف مثل هذا الكتاب هو ما لقيه الجاحظ من انتقاص، وادعاءات باطلة من قبل بعض الكتاب في ذلك الوقت، خصوصا ما كتبه **بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ)** في مقامته الجاحظية، وما كتبه **الباقلاني (ت 403هـ)** في كتابه (إعجاز القرءان)[20]، فالتوحيدي لا يتوانى في الرد على كل من سولت له نفسه التجرؤ على الجاحظ من قريب أو من بعيد.

وهنا يجب أن نشير إلى نقطة مهمة، كان لها دور فعال في إنتاج هذه القراءة، حيث أن ما تميزت به الحقبة التي عاشها التوحيدي، وما حملته من اضطرابات سياسية ومذهبية، كانت كفيلة بانقسام الخلافة إلى دويلات متناحرة على السلطة، وقد نتج عن ذلك فضاء سمح للكثير من المؤلفين والأدباء بعرض خدماتهم على أمراء تلك الدويلات، وأتاح في الوقت نفسه الكثير من الحرية للمؤلفين والأدباء، التعبير عن آرائهم دون تحرج أو خوف، ولعل هذا السبب كان كافيا

ليخرج لنا طبقة من الأدباء والمؤلفين؛ أمثال التوحيدي بتلك القراءة المحايدة التي طبقها على نصوص الجاحظ.

بقي أن نعود إلى قراءة الهمذاني للجاحظ حتى نستوفيها حقها من البحث، ونكشف اللثام عن وجه آخر من القراءة تختلف عما سبق ذكره، كونها اعتمدت في تقييمها لمنجز الجاحظ على المعايير والتحولات التي طرأت على الشعر والنثر في ذلك العصر، حيث إن التغيرات التي مسّت الشعر جرّاء التوجه نحو الصنعة اللفظية، أفضى إلى تبني البديع معيارا للجودة والرداءة فيه، وطال هذا التوجه الأجناس الأدبية بما فيها النثر، ولعل ظهور فن المقامة في حد ذاته ما هو إلاّ نتاج الصراع على المكانة بين النثر والشعر، والتي فرضها توجه الكتاب المحدثين آنذاك، حين دعت الحاجة إلى وجود جنس أدبي من النثر تكون فيه معايير الشعر مهيمنة، فظهرت المقامة بشكلها وقالبها النثري وبخصائصها الشعرية، وبهذا أصبحت خصائص اللغة الشعرية أساسا للبلاغة، في حين أنّ النثر مجرد تابع لها، وعلى هذا الأساس بنى **الهمذاني** قراءته لنصوص الجاحظ بقوله على لسان الراوية عيسى ابن هشام: «فأخذنا في وصف الجاحظ ولَسنه، وحسن سننه في الفصاحة وسننه، فيما عرفناه فقال: يا قوم لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولكل دار سكان، ولكل زمان جاحظ ولو انتقدتم، لبطل ما اعتقدتم، فكلٌّ كشر له عن ناب الإنكار، وأشمّ بأنف الإكبار، وضحكت له لأجلب ما عنده وقلت: أفدنا وزدنا. فقال: إنّ الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعرا رائعا؟ قلنا: لا. فقال: فهلموا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات، منقاد لعريان الكلام، يستعمله نفور من معتاصه يهمله، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة؟ فقلنا لا»[21].

ينطلق الهمذاني من فكرة مفادها أن معيار البلاغة أساسه التمكن من صنعتي الشعر والنثر، أو تلك الصفات التي يتزين بها النص الشعري من الجناس والاستعارات والبديع، والتي من شأنها أن تضفي صفة البلاغة عليه، والتي يجب توافرها حتى في النص النثري، ويوهمنا على لسان راويته –عيسى ابن هشام– بأنها مُسلمة يجب الأخذ بها في الحكم على بلاغة النصوص، وبهذا الشكل استطاع أن يصدر حكمه على نصوص الجاحظ وينتقد مقدار البلاغة فيها، «ولا شك أن هذا الوصف لشعر الجاحظ ونثره صحيح، فنحن لا نعرف للجاحظ شعرا رائعا، ونثره يخلو بالفعل من

تلك الصفات المذكورة، غير أن الوصف لا يجوز أن يكون معيارا للبليغ أو معيارا لبلاغة النثر كما تريد المقامة أن توهمنا، فالجاحظ بليغ بسماته الخاصة، وليس بالسمات المستعارة من الشعر»[22].

والذي يمكن القول به أن الهمذاني من خلال قراءته هاته، عبر عن «التحول الذي طرأ على الكتابة في القرن الرابع، وهذا الانحراف الذي ينذر بعواقب وخيمة والذي تمثل في هذه الصنعة التي أورثت تكلفا وطغيانا للفظ على المعنى»[23].ونستطيع من خلال هذا أن نبرز تلك الخصائص التي وصف بها الهمذاني نثر الجاحظ، لا على أنها نقائص تحط من بلاغته، بل على أنها تقرر حقائق فنية مفادها أن النثر له مقوماته، وأسلوبه الخاص الذي يقوم به، بعيدا عن مقومات وأسلوب الشعر، وأن توجهات الكتاب نحو الصنعة اللفظية في ذلك العصر هو الذي فرض هذا المعيار وجعله عمدة الأدب ومقياس الجودة والرداءة فيه، وفي هذا يقول عبد الفتاح كيليطو: «أنه ابتداء من القرن الرابع كان السعي لتقريب الشقة بين النثر والشعر، صار الشكلان يعالجان نفس الأغراض ويستجيران بنفس المحسنات»[24].

والذي يمكن استخلاصه إجمالا أن أغلب هذه القراءات ما هي في الحقيقة إلا توجهات إيديولوجية مارست سلطتها على الأدب بصفة عامة، إمّا خدمة لمصالحها أو تقربا إلى السلطة بها، وتعد قراءة التوحيدي الأنموذج الأسمى الذي يمثل القراءة المحايدة والالتزام بالنزاهة الفكرية، فرغم ما كان يعتري العصر من توجهات نحو شعرنة النثر والجنوح نحو البديع والصنعة اللفظية، إلاّ أن التوحيدي استطاع باطلاعه الواسع، وقدرته اللغوية، وتحرره من قيود المذهبية أن يستنبط تلك الخصائص الفنية والبلاغية التي وسم بها نثر الجاحظ، وتمثلها في كتاباته التي ما فتئت تضاهي في كثير من الأحيان نثر الجاحظ بلاغة وسبكاً.

ثانيا–التوحيدي من الاحتذاء بالجاحظ إلى مواصلة منجزه الكتابي:

تكاد تجمع كل النصوص على أن التوحيدي كان مولعا بالجاحظ، محبا له، حتى أن **مسكويه (ت 421هـ)** حين سأله أبو حيان التوحيدي عن الحياء، أجابه بقوله: «وصديقك أبو عثمان يقول: الحياء لباس سابغ، وحجاب واق وستر من المساوئ .... وإنما حكيت لك ألفاظه لشغفك به، وحسن قبولك كل ما يشير إليه ويدل عليه»[25].

فهذا مسكويه مع علمه الواسع، وما يكنه له التوحيدي من تقدير واحترام، يورد قول الجاحظ في الإجابة عن سؤاله، لما يعلم من قبوله في نفس أبي حيان التوحيدي.

تأثر التوحيدي ببلاغة الجاحظ وأسلوبه، فقد نقل في كتابه (البصائر والذخائر) كلمات الإعجاب التي قالها **ثابت بن قرة** فيه: «فسبحان من سخر له البيان وعلمه، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه، مع الاتساع العجيب، والاستعارة الصائبة، والكتابة الثابتة، والتصريح المغني، والتعريض المنبي، والمعنى الجيد واللفظ المفخم، والطلاوة الظاهرة والحلاوة الحاضرة إن جد لم يسبق، وإن هزل لم يلحق، وان قال لم يعارض وإن سكت لن يعرض له»[26].

ولم يكتف التوحيدي بإيراد ما قيل في مناقب الجاحظ، بل تعداه إلى المنافحة عنه وعن أسلوبه، ففي الليلة الرابعة من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، يورد التوحيدي نصا يبين فيه ادعاءات ابن العميد وابن عباد بمعرفتهم أسلوب الجاحظ، فيرد عليهم بقوله: «سمعت **ابن ثوابة** يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدا من الجاحظ قريبا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها أحد»[27]. فهو بهذا ينصّب نفسه خبيرا بأسلوب الجاحظ، عارفا بتفاصيل كلامه، متقنا لمذهبه في الكتابة التي لا تتأتى لأي أحد، إلا إذا توفرت فيه الشروط التي حددها في هذا النص. وهو بهذا يقدم لنا مذهب الجاحظ على أنه عملة نادرة بعيدة المنال، ليس من السهل أن تجتمع في أحد غيره.

ورغم الاختلاف الكبير بين الجاحظ والتوحيدي من الناحية العقدية، إذ تجده يهاجم المعتزلة والمتكلمين جميعهم، وهو يعلم أن الجاحظ منهم، فإن هذا لم يمنعه من أن ينصف الجاحظ وينزله المنزلة التي يستحقها، فتجده في معظم مؤلفاته يورد له شيئا من مديحه وفضله عليه؛ ففي مقدمة كتابه (البصائر والذخائر) يقول: «جمعت ذلك كله في هذه المدة الطويلة من كتب شتى، ككتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وكتبه هي الدر النثير واللؤلؤ المطير، وكلامه الخمر الصرف والسحر الحلال»[28]. وفي هذا يقول **مارك برجيه Mark Berger** في مقالته "بنوة التوحيدي الأدبية للجاحظ": «ومن بواعث الدهشة أن نرى التوحيدي في كتاب له ماله من أهمية ككتاب (البصائر) ذي المصادر المتعددة، يولي المكانة الأولى للجاحظ وهو فضلا عن ذلك يذكر (كتب الجاحظ) تاركا المجال للافتراض بأن تلك الكتب على تنوعها معروفة لديه ولد الجمهور المثقف الذي يؤلف له، وأنه لا مجال لتقديم كتاب منها على الآخر»[29].

ولم يكتف التوحيدي بإيراد فضل الجاحظ عليه عبر فقرات مبثوثة في كتبه هنا وهناك، بل تعداه إلى أن خصص له كتابا خاصا سماه (تقريظ الجاحظ) وفيه يقول: «والذي أقوله وأعتقده وآخذ به وأستهام عليه، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر، ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم، في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم: أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة، وبسببه جشمنا هذه التكلفة، أعني عثمان عمرو بن بحر»[30].

والواضح من هذا الكلام أن التوحيدي قد تخصص في كتب الجاحظ، ونال منها ما نال من العلم الوفير، الأمر الذي دعاه لتأليف هذا الكتاب كعربون امتنان وفضل أحسه التوحيدي دينا على عاتقه، خصوصا أن هذا العصر عرف تحولا كبيرا في نمط الكتابة، وتهجما واضحا على الجاحظ وأسلوبه، ومن ذلك ما فعل **الهمذاني (ت 398هـ)** في مقامته الجاحظية، وما فعل **الباقلاني (ت 403هـ)** في كتابه (إعجاز القرءان)*.

وبعد هذه الإشادة الصريحة التي حظي بها الجاحظ عند أبي حيان التوحيدي، ذهب أغلب الدارسين إلى القول إن التوحيدي كان مقلدا لأسلوب الجاحظ، تابعا له. ويعد **ياقوت الحموي (ت 626هـ)** أول من فتح الباب أمام الباحثين للقول بهذا الرأي، حين قال في ترجمته له: «وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم في سلكه.»[31]وبعد ذلك توالت الآراء حول هذا تباعا تسير على نسق واحد، حتى أصبح هذا القول من المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان.

ولم يقتصر هذا القول على القدماء، بل تعداه إلى المعاصرين الذين رأوا أن التوحيدي سلك في كتاباته مسلك الجاحظ، وقد عقدوا الكثير من المقارنات حول أسلوب الرجلين للفصل بينهما. يقول الدكتور **زكريا إبراهيم**: «ومهما يكن من شيء، فقد كان أبو حيان من أكبر المعجبين بالجاحظ، فضلا عن أنه كان يقول عنه أنه (واحد الدنيا) الذي لا نظير له في دنيا البلاغة والإنشاء، وهذا ما حدا بالكثير من الباحثين إلى عقد مقارنات بين الجاحظ والتوحيدي لا لمعرفة مدى تأثر التلميذ بأستاذه فحسب، ولكن للوقوف على خصائص الأسلوب عند كل منهما أيضا»[32].

ويبدو من خلال هذا القول إن الذي حدا بالباحثين إلى عقد مقارنات بين الجاحظ والتوحيدي، هو تلك الإشادة الصريحة التي لقيها الجاحظ من التوحيدي، والتي بدا أثرها واضحا في كتاباته التي جاءت تحاكي في كثير من الأحيان أسلوب الجاحظ، وطريقته في الكتابة النثرية.

ويقول الدكتور **زكي مبارك** عندما يتحدث عن كتاب (المقابسات): «ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده، وإن كنا نرى في ذلك بعض البعد عن الصواب؛ لأنه يحاكي الجاحظ في أسلوبه الفلسفي الأدبي فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون في الكتابة الفلسفية التي تقبلها الناس في ذلك الحين»[33].

يذكر الدكتور زكي مبارك أن التوحيدي كان يحاكي الجاحظ في أسلوبه الأدبي الفلسفي، كما أشار الدكتور زكي مبارك إلى نقطة مهمة، هي اختلاف طريقة التوحيدي في الكتابة عما كان معروفا في عصره، ففي الوقت الذي انصرف فيه الكتاب إلى تبني السجع والصنعة اللفظية كأسلوب جديد في الكتابة، أقبل هو على الازدواج وترك السجع متأسيا بشيخه الجاحظ، ويضيف زكي مبارك أن هذا النوع من الكتابة هو لون في الكتابة الفلسفية التي تقبلها الناس في ذلك الحين.

أمّا الدكتور **علي دب** فيقول: «والتوحيدي من الكتاب المعجبين بأسلوب الجاحظ بل ويتعصب له، وكل الدارسين الذين تناولوا التوحيدي بالدرس، عقدوا المقارنات الطويلة بين الكاتبين، على المستوى الأسلوبي وحتى على المستوى الفكري، ولقبوا التوحيدي بالجاحظ الثاني»[34].

يرى الدكتور علي دب أن التوحيدي كان من أشد المعجبين بأسلوب الجاحظ لدرجة التعصب له، وأن كل الدارسين الذين عقدوا مقارنات بين الرجلين توصلوا إلى هذه الحقيقة، وما قاموا به من دراسات حول الكاتبين على مستوى الأسلوب وعلى مستوى الأفكار أثبتت أن التوحيدي هو الجاحظ الثاني دون منازع. ويقول الدكتور **عبد الحكيم بلبع**: «...فقد اصطنع منهجه وسار على طريقته، فهو امتداد لروحه وفكره وثقافته الواسعة التي لا تعرف الحدود»[35].

وحقيقة الأمر أن المسألة تحتاج لدراسة وتمعن، فالاتباع كان مواصلة وإضافة واستلهام، ولم يكن مجرد تقليد واستنساخ، لأن الذي أوقع القائلين بالتقليد في الوهم، هو ما حظي به الجاحظ من إشادة صريحة عند التوحيدي ولو أمعنا النظر في أسلوب التوحيدي «لوجدنا انه يتسم بخاصية فريدة تكشف عن شخصية صاحبه (الأديب الفيلسوف)، ونحن نعرف أن الفنان يعبر عن المعاني

بالصورة الحسية، في حين أن الفيلسوف يعبر عنها بالتصورات الذهنية وهذا هو الفارق مثلا بين أسلوب أديب كالجاحظ وأسلوب فيلسوف كالفارابي، وأما التوحيدي فهو أديب فيلسوف، يعلم أن في كل محسوس ظلا من المعقول»[36].

وسجل أحد الدارسين اختلاف ثقافة التوحيدي عن ثقافة الجاحظ، فقال «ثقافة التوحيدي اختلفت عن ثقافة الجاحظ مضمونا واتجاها: لقد كانت نقطة ارتكاز ثقافة التوحيدي الفلسفة إلى جانب الدين طبعا خلافا للجاحظ الذي اعتمد الكلام فاصطبغ به تفكيره وأسلوبه...أما الفرق في الاتجاه فيتمثل في أن التوحيدي –خلافا للجاحظ– قد اتخذ مواقف سياسية جريئة، فانتقد السياسة ملوكا أو وزراء، وندد بألوان الظلم والعسف والاستبداد التي كانت تسلط على الرعية»[37].

أضف إلى هذا، أن الفترة الزمنية التي تفصل بين هذين القطبين طويلة جدا، ولا شك أن تغيرا كبيرا حدث في طريقة الكتابة النثرية، وخاصة في طريقة التعبير، والحكم على بلاغة النصوص، وإلا بما نفسر ذلك الجنوح نحو الصنعة اللفظية في القرن الرابع هجري على غرار القرن الثاني للهجرة. فالجدير بالذكر أن نقول إن التوحيدي لم يكن مقلدا لأسلوب الجاحظ بل مكملا له، واستطاع إلى حد بعيد أن يعيد تحيين الكتابة الجاحظية، وفقا لمقتضيات وثقافة العصر، بل إنه «انتقل بالكتابة من مهمة الرواية التي هي نقل الماضي بصيانته في الحاضر إلى مهمة التدوين التي هي تسجيل الحاضر لصيانته في المستقبل: هي وظيفة الإدلاء بالشهادة التاريخية مع العمل على تسجيلها»[38].ولعل **أحمد أمين** خير من أنصف الرجلين، حين قال «كان الجاحظ أكثر تشبعا وأكثر انطلاقا بينما التوحيدي أجزل لفظا وأوسع علما، لأن الجاحظ كان سجل القرن الثاني، وفي القرن الثاني بدأت نشأة العلوم، وأبا حيان سجل القرن الرابع وقد نضجت العلوم وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج»[39].

ومن خلال هذا القول نستنتج أن للتوحيدي أسلوبه الخاص الذي تميز به، وميزه عن شيخه، فهو أجزل لفظا وأوسع علما، كون العلوم في القرن الرابع الذي مثله التوحيدي قد نضجت ووصلت إلى أوج عطائها، على غرار القرن الثاني الذي مثله الجاحظ والتي كانت فيه العلوم لا تزال في بداية نشأتها. وقد اعتمد التوحيدي على الفلسفة في طرحه للموضوعات ومعالجته لقضايا عصره، فجاءت معظم مؤلفاته عبارة عن مسامرات، أو محاورات، أو مناظرات أدبية فلسفية، فهو كما يصفونه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

ثالثا–مستويات قراءة التوحيدي للجاحظ:

سار التوحيدي على خطى الجاحظ واقتفى أثره في الكتابة النثرية، ونبذ تلك الكتابات الأدبية المزخرفة بألوان السجع والبديع، والتي بدا التصنع والتكلف ظاهرا فيها، فقد «راعه أسلوب الجاحظ وأدبه، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني، مستخدما الازدواج الذي عرف به، وقد يتخلله في الحين بعد الحين السجع، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءا لا يتجزأ من أدبه وكتاباته»[40].وقد تعددت مستويات قراءة التوحيدي للجاحظ، ومن هذه المستويات نقف عند ما يلي:

1– الموسوعية المعرفية

لعل أكبر تحصيل ناله التوحيدي من قراءته للجاحظ واستأثر به على من سواه في القرن الرابع هجري، وساهم إلى حد بعيد في تشكيل ملامح الثقافة التوحيدية، «هو التمسك بالموسوعية في سمتها الأولى التي هي السمة المطلقة في القرن الرابع، وإن استبقى الموسوعية الفكرية فقد نحتها نحتا جديدا، إذ زرع في حناياها بذور الاختصاص المعرفي داخل الدائرة الثقافية العامة، مما أوجد ما قد نسميه الثقافة الموسوعية ذات المرجعية المتخصصة»[41].

2– تبني الخط العقلاني:

لم يقف التوحيدي عند الغرف من معين الجاحظ والاستشهاد بأقواله التي ضمّنها كتبه، بل اتجهت قراءته إلى تبني الخط العقلاني عنده في معالجة قضايا عصره، فقد كانت كتاباته تعكس «صور تلك الحياة الثقافية النابضة والازدهار الحضاري في شتى جوانب الدولة الإسلامية فكانت كتبه وكتاباته سجلا لما عاشته عاصمتها بغداد وغيرها من العواصم التي زارها من حياة فكرية وفنية وأدبية»[42]، وبهذا كانت كتاباته ناقلة للحركة العقلية في ذلك العصر. والمطلع على كتب التوحيدي يدرك ذلك الزخم المعرفي والفلسفي الذي كانت تتمتع به ذهنيته المتقدة، فقد «استطاع أن يرتفع من الواقع إلى ملامسة الإشكال المعرفي الفلسفي الذي كان صدى للواقع الموضوعي السائد، إنه يعرض لهذا الزخم الفكري والجدلي ليثير الأفكار ويوجهها وجهات جديدة تنويرية؛ فالتوحيدي تصل معه في نهاية التساؤل والإجابة إلى رؤية وإبداع، وعليه نلمس اختلاف الفكر التوحيدي عن غيره وذلك بأفضليته المبنية على المقاربة الفلسفية في طرح المشاكل المشتركة بين الأفكار المتعارفة، وهو في ذلك يقترب من ابن رشد فيلسوف قرطبة إنه ينتصر للعقل لا الوجدان»[43]. وما كتاب (الإمتاع والمؤانسة) إلاّ عينة بسيطة مما جادت به تلك المسامرات التي

أثارها التوحيدي مع الوزير "**ابن سعدان**"، والتي تُعرب في مكنونها عن تلك القدرة اللغوية التي صاغ بها التوحيدي تلك المسامرات، فالخروج بنص أساسه مادة شفوية، ونقله إلى الكتابة بذلك الشكل الفني، ينم فعلا عن ملكة لغوية عالية، وعلم غزير، وتصور فلسفي يستدعي الكثير من الأسئلة ومقارعتها بالحجة والدليل، خصوصا وأن أكثر المواضيع التي عالجها التوحيدي عبارة عن محاورات، أو مناظرات، أو مسامرات علمية فلسفية بحتة جافة، تحتاج معها إلى الكثير من الجهد لتصنع منها عملا فنيا راقيا، يحمل من صفات الإبداع كالذي صوره لنا التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)؛ فالكتاب كما يصفه الباحث **محمد عبد الغني الشيخ** يمثل «صورا لحرية الرأي والتفكير والتعبير رائعة، عندما يسجل محاضر الجلسات كما يسميها الأستاذ أحمد أمين للمجالس التي كان يعقدها الوزراء والعلماء، فيدل على نشاط ذهني فلسفي عجيب، وهذه المجالس يشترك فيها المسلم والنصراني واليهودي والمجوسي لا فرق بين هؤلاء جميعا، كما كان يشترك فيها أيضا اللغوي والنحوي والفقيه والمتكلم والفيلسوف والمؤرخ إلى غير هؤلاء، كل كان ينهل من هذه الموارد كيف ومتى شاء دون قيود أو حدود».[44]

سجل التوحيدي كل هذه الآراء ونقلها في كتابه دون زيادة أو تحريف، مستطردا إلى الحديث في المواضيع حتى يأتيها من جميع جوانبها، ومثل هذا الاستطراد الذي جاء به التوحيدي لا يتأتى إلاّ لمن امتلك موسوعية معرفية كالجاحظ، وقد أثمر هذا التوسع في معالجة المواضيع إلى كشف الكثير من الحقائق المغيبة التي لولا التوحيدي لما وصلنا منها شيء، ونخص بالذكر هنا رسائل (إخوان الصفا وخلان الوفا) وما كان يعتريها من غموض في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ونذكر أيضا تلك المحاورة التي نقلها حول المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني، والتي كانت بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس القنائي.

3- العشوائية في التأليف

اتبع التوحيدي طريقة شيخه الجاحظ في التأليف فلم يول اهتماما لتقسيم مؤلفاته إلى فصول وأبواب، بل إنه كان أقل التزاما منه باشتراطات التخصصات المعرفية، فهو يجمع شتى المعارف في مؤلف واحد دون ترتيب أو تبويب. وفي هذا يقول الدكتور **زكريا إبراهيم** معلقا على كتاب (البصائر والذخائر) للتوحيدي: «ويظهر في هذا الكتاب تأثر التوحيدي بالطريقة الجاحظية في التأليف: فقد نثر المسائل نثرا، دون مراعاة التسلسل المنطقي أو الترابط الموضوعي، فجاء الكتاب

"حشدا عجيبا" من المعارف والحكم والمعلومات؛ ليس فيه نتائج مستنبطة من مقدمات، ولا فروع مستخرجة من أصول، ولا أي ضرب من ضروب الترتيب أو التبويب»[45].

4- أسلوب السخرية

ورث التوحيدي عن الجاحظ استخدامه أسلوب السخرية في كتاباته الفنية «فقد كان ميالا الى الهزل والدعابة، فضلا عن أنه كان أعرف الناس بقيمة الفكاهة في حياة البشر»[46] ولعل سبب استخدام التوحيدي للهزل والفكاهة، «لم يكن إلا صدى لما حفلت به حياته من آلام ومصائب ومحن؛ فهو ذو نفس معذبة التمست في الهزل ترويحاً وفي الفكاهة منفذاً، وفي النكتة مهرباً من واقع لم يستطع التعايش معه إلا بصعوبة؛ فقد كانت حياته ملآى بالتزمت والعبوس والحنق»[47]

وقد ذكر التوحيدي هذا الأسلوب وبرر استخدامه بقوله: «إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف؛ فإنك إن أضربت عنها جملة لنقص فهمك وتبلد طبعك... واجعل الاسترسال بها ذريعة إلى إحماضك، والانبساط فيها سلماً إلى جدك؛ فإنك متى لم تذق نفسك فرح الهزل كربها هم الجد»[48] ،كما يبرز أهمية الهزل بالاستناد الى قول ابن عباس الذي ختم به أحد مجالسه قائلا: «وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه: بعد الخوض في الكتاب والسنة والمسائل أحمضوا، وما أظنه أراد بذلك إلا لتعديل النفس لئلا يلحقها كلال الجد، ولتقتبس نشاطاً في المستأنف، ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتستمع»[49].

وبهذا يكون التوحيدي قد سار على نهج شيخه الجاحظ في كتاباته النثرية، فاتبع طريقته في التأليف، وتمسك بالموسوعية المعرفية في سمتها الأولى التي عرف بها الجاحظ، وتبنى الخط العقلاني عنده في معالجة ما استجد من قضايا عصره، من خلال الاستفادة من المعارف الفلسفية والكلامية، فجاءت كتاباته ناقلة للحركة العقلية في ذلك العصر، ومعربا في كثير من الأحيان عن امتنانه بما أخذه عن شيخه، مدافعا عن طريقته الجاحظية في التأليف.

الخاتمة:

- أنصف التوحيدي الجاحظ في قراءته له معترفا بما أخذه منه، ومترجما ذلك في الكتاب الذي ألفه عنه - تقريظ عمرو بن بحر- في حين منعت الخصومة المذهبية غيره من تحقيق هذا الإنصاف والالتزام بالنزاهة الفكرية، لأنها رأت في النصوص الأدبية خطابا دينيا يقوم على تقويم سلوك الفرد والمجتمع، وبذلك رفضت نثر الجاحظ جملة وتفصيلا، لأن موضوعاته تدعو إلى الفسق وفساد الأخلاق، كما يرى ابن قتيبة ومن سلك مسلكه.

– سار التوحيدي على خطى الجاحظ، وحذا حذوه في الكتابة النثرية، غير أن الاتباع كان مواصلة وإضافة واستلهاما، ولم يكن مجرد تقليد واستنساخ، لأن الذي أوقع القائلين بالتقليد هو ما لقيه الجاحظ من إشادة صريحة عند التوحيدي، وكثرة ما سمع من تلقيبه بالجاحظ الثاني.

– صنع التوحيدي لنفسه أسلوبه الخاص الذي تميز به وميزه عن شيخه الجاحظ، كونه اعتمد على الفلسفة في طرحه للموضوعات ومعالجته لقضايا عصره، معتمدا في ذلك على أسلوب فني وقالب سردي خاص، فجاءت معظم مؤلفاته عبارة عن مسامرات، أو محاورات، أو مناظرات أدبية فلسفية، فهو كما يصفونه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

– تعددت مستويات قراءة التوحيدي للجاحظ فبالإضافة إلى المأخوذات المعلن عنها المشار إلى مظانها في تراث الجاحظ، تبنى التوحيدي أسلوبه في الكتابة، وتمسك بالموسوعية المعرفية في سمتها الأولى التي عرف بها الجاحظ، كما اتجهت قراءته إلى تبني الخط العقلاني عند الجاحظ في معالجة ما استجد من قضايا عصره، من خلال الاستفادة من المعارف الفلسفية والكلامية، فجاءت كتاباته ناقلة للحركة العقلية في ذلك العصر.

– تأثر التوحيدي بالطريقة الجاحظية في التأليف، فلم يول اهتماما لتقسيم مؤلفاته إلى فصول وأبواب، بل إنه كان أقل التزاما منه باشتراطات التخصصات المعرفية، فهو يجمع شتى المعارف في مؤلف واحد دون ترتيب أو تبويب.

–استطاع التوحيدي أن يسمو بالكتابة النثرية، ويصل بها إلى أوج عطائها الفني والأدبي والفلسفي، معربا عن فهمه الصحيح لأسلوب الجاحظ، ومواصلا دربه في الكتابة الفنية.

هوامش:

[1] –حسن السندوبي، أدب الجاحظ، المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي (مصر)، ط1، القاهرة، 1931م، ص18

[2]– إحسان عباس، أبو حيان التوحيدي، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، سنة 1956، ص53

[3] – صلاح الدين بن أيبك الصفدي، نصرة الثائر على المثل السائر، تح: محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية (دمشق)، ط1، 1974م، ص90

[4] – حسن السندوبي، أدب الجاحظ، ص76

[5] – المصدر نفسه، ص75

[6] – ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تح: رضى فرج الهمامي، المكتبة العصرية صيدا (بيروت)، ط1، 2003، ص 56

[7]– محمد مشبال، البلاغة والسرد (جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ)، منشورات كلية الآداب جامعة عبد الملك السعدي تطوان (المغرب)، 2010م، ص 103

[8] – المصدر نفسه، ص105

[9] – حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط3، 2010م، ص17

[10]– أنظر محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص104

[11] – المصدر نفسه، ص105

[12] – عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة العصرية (بيروت)، 1990م، ص 177

[13] – الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تح: محمد بن زاهد الكوثري (القاهرة)، 1960م، ص50-51

[14]– عبد الواحد التهامي العلمي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي (دراسة في أدب الجاحظ)، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع(الأردن)، ص17

[15] – المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم مفيد قميحة، ج 4، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص 223

[16] –محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي (رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد)، ج1، الدار العربية للكتاب (تونس)، 1983م، ص381

[17] – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تح: إبراهيم الكيلاني، ج7، ص 241

[18] – محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص107

[19] – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تح: إبراهيم الكيلاني، ج2، ص279

*كتاب تقريظ الجاحظ من آثار أبي حيان التوحيدي المفقودة، وليس بين أيدينا منه إلا مقتطفات ساقها ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء، وقد نقلها من كتاب التقريظ بخط أبي حيان التوحيدي

[20]– إبراهيم صبري محمود راشد، الجاحظ في مرآة أبي حيان، كتاب المجلة العربية 179(الرياض)، 1432هـ، ص36 -40

[21]– بديع الزمان الهمذاني، المقامات، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية (بيروت)، ص87-88

[22]– محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص108

[23] – إبراهيم صبري محمود راشد، الجاحظ في مرآة أبي حيان، ص37

[24] –عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار الطليعة (بيروت)، 1982م، ص23

[25] – أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، تح: أحمد أمين والسيد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2001م، ص43

[26] – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تح: إبراهيم الكيلاني، ج1، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، سنة 1964، ص232-233

[27] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح: هيثم خليفة الطعيمي، ج1، المكتبة العصرية، صيدا (بيروت)، 2011م، ص66 -67

[28] – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تح: إبراهيم الكيلاني، مقدمة الكتاب

[29] – مارك برجيه، بنوة الجاحظ الأدبية، مجلة المجلة المصرية، مقالات العدد (154) الصادر في: 1 أكتوبر 1969م، ص26

[30] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تح: إحسان عباس، ج1، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط1، ص258-259

[*] يرى الباقلاني أن الجاحظ ليس له طريقة أو مذهب في الكتابة، بالرغم أنه في بعض ما ذكر في كتابه، صرح بوضوح أن للجاحظ طريقة تقابل طريقة السجع وتراه في كثير من الأحيان ينتقص الجاحظ ويقدم ابن العميد عليه بقوله: «ولعله قد بان تقدمه عليه».

[31] – ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ج5، ص1924

[32] – زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، دت، دط، ص135

[33] – زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (مصر)، (القاهرة)، 2013م، ص492

[34]– علي دب، الأديب المفكر أبو حيان التوحيدي تقديم: نزار بني المرجة، اختيار: مالك صقور، سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/79/كانون الأول، اتحاد الكتاب العرب، ص170

[35] – عبد الحكيم بلبع، أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النهضة (مصر)، ط3، 1979م، ص258

[36] – زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدي، ص140

[37] – البشير المجدوب، حول مفهوم النثر الفني عند العرب القدامى، الدار العربية للكتاب، 1982م، ص174-176

[38]– عبد السلام المسدي، التوحيدي وسؤال اللغة، مجلة فصول المصرية، المجلد الرابع عشر، العدد الثالث، خريف 1995م، ص 133

[39]– أبو حيان التوحيدي، مقدمة البصائر والذخائر، تح: أحمد أمين

[40] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، دار المعارف (القاهرة)، ط2، ص462

[41] – عبد السلام المسدي، التوحيدي وسؤال اللغة، ص133

[42]–محمد زغلول سلام، الأدب في عصر العباسيين، من بداية القرن الرابع إلى نهايته، منشأة المعارف، ج2، الإسكندرية (مصر)، ط1، 1999م، ص271

[43] –عبد القادر العربي، بلاغة الخطاب وإبلاغيه التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي، حوليات الآداب واللغات، جامعة المسيلة (الجزائر)، العدد الرابع، أكتوبر 2014م، ص14

[44]– محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيان التوحيدي (رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد)، ج2، الدار العربية للكتاب (تونس)، 1983م، ص32

[45]– زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص127

[46]– المصدر نفسه، ص 215-216

[47]– أحمد محمد الحوفي، أبو حيان التوحيدي، ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة (مصر) بالفجالة، (القاهرة)، د.ت، ج 2 ص145

[48]– أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج1، ص46-50

[49]– أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص60